مقدمة

لم يكن العالم يعتبر غزو أمريكا للعراق واحتلاله لها فى سنة ٢٠٠٣م ـ ذلك الغزو الذى ساعد فيه البريطانيون وحرَّضوا عليه ـ حربًا لها أىّ سند من القانون الدولى، فهى حرب لا يمكن وصفها بأنها عادلة أو أخلاقية.

لقد عارض الزعماء السياسيون من فرنسا وألمانيا إلى روسيا وكندا هذه الحرب، ورفضوا المشاركة فيها، بل ورفضوا أيضا الإسهام فى المصالحة بعد الحرب، والإسهام فى إعادة إعمار العراق. وأبدى الزعماء الدينيون المسيحيون ـ أيضًا ـ درجةً من الإجماع غير المسبوق على رفض هذه الحرب. فالبابا يوحنا بولس الثانى، وأسقف كنيسة كانتربرى الإنجليكانية ـ روان وليامز، كلاهما عارض هذه الحرب معارضةً صريحة، كما عارضها أيضًا رأس الكنيسة الميثودية المتحدة(*) التى ينتمى إليها الرئيس جورج دبليو. بوش. عارضها رأس هذه الكنيسة مع معارضة الزعماء الدينيين للّوثرية العالمية، ومعظم الكنائس المَشيخيَّة Presbyterian، بل ومعظم الملل المسيحية فى العالم بما فيها ملّة «المعمدانيين ـ Baptists»، والأورثوذكس. لكن هذه المعارضة المسيحية الرسمية لهذه الحرب، حجبت عنَّا مدى التأييد الذى لقيته ـ أى هذه الحرب ـ من ملايين المسيحيين الأمريكيين ليس من «المعمدانيين ـ Baptists» المحافظين فى الجنوب الأمريكى

(*) سموا بهذا لإلتزامهم الشديد بمنهج سلوكى معين، وقد أطلق عليهم مناوئوهم هذا الاسم استهزاء بهم، لكنهم تمسكوا بهذا الاسم بعد ذلك. مؤسس هذا المذهب هو چون وسلى فى مطلع القرن ١٨. وكان عدد كبير من الميثوديست من بين المهاجرين إلى أمريكا. وقد انفصلوا عمليا عن الكنيسة الإنجليكانية حوالى سنة ١٧٧٩م. باختصار عن تاريخ الكنيسة. تأليف چون لوريمر، ترجمة عزرا حداد. القاهرة، دار الثقافة، جـ٥، ص٨٢ وما بعدها ـ المترجم.

فحسب، وإنما أيضا من الكنائس المحافظة التى تزدهر ازدهارًا سريعًا، وكذلك من الكنائس العملاقة فى الضواحى والأرياف.

لقد كان دعْم هذه الملايين من المسيحيين الأمريكيين للحرب ضد العراق مُشابهًا لتفجّر روح الوطنية الأمريكية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، إذ كان المرء يلاحظ - خاصة فى مواقف السيارات المجاورة للكنائس المحافظة - فى صبيحة أيام الآحاد أنّ الملايين يلصقون على نوافذ سياراتهم العلم الأمريكى ذا النجوم والخطوط. لقد كانت هذه الأعلام البلاستيكية الصغيرة ظاهرة تَعِجُّ بها أمريكا كلها.

وكلّ هذا بفضل براعة إدارة بوش فى بيْع مزاعمها الكاذبة عن العراق للشعب الأمريكى - تلك المزاعم التى مؤدَّاها أنّ صدّام حسين يَدْعم تنظيم القاعدة، وأنّه يمتلك أسلحة دمار شامل يمكنه بها أن يشن حربًا ضد دول أخرى، وينوى تسريبها للإرهابيين الدوليين، لذا فحكمه يُشكِّل تهديدًا مباشرًا لشعب أمريكا - فراحت غالبية الأمريكيين تعتقد أنّ صدّام حسين منخرط فى تدابير هجومية إرهابية على الساحل الشرقى لأمريكا، بسبب التوجّه الإعلامى اللانقدى لوسائل الإعلام الأمريكية التى تهيمن عليها المؤسسات الكبرى.

إننى أستخدم كلمة تبيع، أى تبيع الإدارة الأمريكية هذه الأفكار للشعب الأمريكى، بصدد حديثى عن الإعداد للحرب ضد العراق؛ لأنَّ بوش وشينى وپاول ورامسفيلد استأجروا كارولين بيرز، خبيرة الدعاية والمديرة التنفيذية السابقة، المسئولة عن بيع الشامپو المزيل للقشرة (هيد أند شولدرز شامپو) والأرز ماركة العم بن (أنكل بنز ريس). استأجروها لتبيع الحربَ ضد العراق للشعب الأمريكى. لقد كان الهدف - على حدّ قول كولن پاول - هو وَضْع علامة مميَّزة (علامة تجارية) على السياسة الخارجية الأمريكية[١]. وطالما أنَّ هذا الهجوم على العراق الذى تم التخطيط له من زمان طويل، يمكن أن يُباع فى إطار علامة أو سمة لسياسة خارجية جديدة (الحرب ضدّ الإرهاب) فقد كان فى مقدورهم دائما أن يضمنوا دعم الشّعب الأمريكى. إننى لا أقول إن الهجوم على العراق عملية «تم التخطيط لها من زمان طويل» عبثًا؛ ذلك لأن خطط إزاحة صدَّام حسين كانت قد نوقشت فى البيت الأبيض منذ أوَّل يوم لإدارة بوش - بل وقبل ذلك - بين النخبة الداخلية للإدارة الأمريكية[٢].

لقد كان دعْم بوش أقوى ما يكون بين ملايين المسيحيين المحافظين الذين كانوا قد صوَّتوا له فى سنة ٢٠٠٠م بوصفه المرشَّح المختار لـ «اليمين المسيحى ـ Christian Right» والذى تتركَّز اهتماماته الأخلاقية على مقاومة الإجهاض، وعلى القيم الأسرية، وعلى إسرائيل، وهى الأمور التى ركَّز عليها فى خطابه للشعب الأمريكى أثناء معركته الانتخابية للوصول إلى الرياسة. هذه الاستراتيجية التى استخدمها فى معركته الانتخابية تعكس وصاله الراسخ منذ فترة طويلة مع اللّوبى المسيحى الإيڤانجليكى منذ حملة أبيه الانتخابية للرياسة فى سنة ١٩٨٨م، ومنذ حملته الانتخابية لمنصب محافظ تكساس. لقد تحوَّل بوش إلى المسيحية «الإيڤانجليكية ـ evangelical» تحت تأثير بيلى جراهام، وآرثر بليست، وغيرهما من الشخصيات الإيڤانجيلية البارزة القريبة من أسرة بوش. وعلى هذا فقد عمد ـ بوصفه حاكما لتكساس ـ إلى دفع أجنْدة اليمين المسيحى المحافظ دفعًا لم يفعله أى حاكم لولاية تكساس قبل ذلك. لقد منع ـ بحسم ـ التمويل الحكومى الموجّه للخدمات الاجتماعية والتعليم، بينما سمح ـ لأوّل مرَّة ـ بتحويل الدعم المالى فى الولاية لمنظمات الخدمات الاجتماعية القائمة على أساس دينى. لقد أعاد صياغة «قانون الضرر (الإساءة والتعدّى) ـ tort law» الخاص بولاية تكساس جاعلاً ـ فى الغالب الأعم ـ من غير الممكن بالنسبة للجماعات أو الأفراد أن يتخذوا إجراءات مدنية ضد الشركات الخاصة عند حدوث وفاة وعند حدوث إصابات أثناء العمل أو ضد الأنشطة الملوِّثة أو المضرّة أو الناتجة عن الإهمال. وأكثر من هذا فقد زاد من شهرة تكساس؛ فى أنها أشد الولايات فى أحكام العقاب، إذ كان من الممكن فيها عقاب ـ حتى الأطفال ـ بعد المثول أمام المحكمة[٣].

وقبل أن يفوز بوش برياسة البيت الأبيض فى انتخابات غير حاسمة بشكل كاف، قام أخوه جب بوش بدور بارز فى قمع أصوات السود[٤] ـ بوصفه حاكمًا لولاية فلوريدا ـ قبل هذا اعترف بوش بأنه يعتقد أنَّ الله استدعاه ليخدم وطنه فى لحظة أزمة كبيرة. لقد قال: «إننى أشعر كما لو أنَّ الله يريدنى أن أكون رئيسا. لا أستطيع أن أشرح كيف حدث هذا، لكننى أشعر أن وطنى بصدد الحاجة إلىَّ. إنّ أمرًا ما سيحدث، عندها سيحتاجنى وطنى»[٥].

* * *

شعب مختار؟

فصَّل چورج بوش بوضوح فى خطابه فى يناير سنة ٢٠٠١م بمناسبة توليه منصب الرياسة، اعتقاده بأن الله يدعوه ويدعو أمريكا لقيادة العالم فى معركة حدَّدها الله سَلَفًا (معركة رؤيوية، أشار إليها سفر الرؤيا فى الكتاب المقدس بين قوى الخير وقوى الشر، لتشكيل العالم وفق القيم الأمريكية ـ قيم الحرية والديمقراطية والسُّوق الحر. ولا شك أن استخدام الخطاب الدينى فى خطابات التولية مسألة ليست قَصْرًا على بوش، فقد استخدم كلينتون وريجان وكارتر هذا النوع من الخطاب. لكن بوش ـ على أية حال ـ ذهب إلى أبعد من الدِّين المدنى المعتاد فى مثل هذه المناسبات، بدعوته فرانكلين جراهام(*) بمباركة حفل التنصيب بتبريكات التثليث والصلاة. لقد بدأ بوش خطابه بصياغات تشير إلى الدور «المسيحانى» الممثَّل فى التاريخ الأمريكى بوصفه حافزًا على الحرية، وفى الأمريكيين بوصفهم محررين للإنسانية. قال بوش: «هناك مكان لنا جميعا عبر تاريخ طويل، إنه تاريخ نحن نُواصله، لكننا سوف لا نرى نهايته. إنَّ هذا التاريخ هو قصة عالم جديد أصبح صديقا للعالم القديم ومحرّرا له. قصة مجتمع أخذ بنظام الرقّ لكنه أصبح خادمًا للحرية. قصة قوّة اتجهت للعالم لتحميه لا لتملكه، ولتدافع عنه لا لتغزوه»(٦).

إن أمريكا فى هذه القصة هى «العالم الجديد» «المخلِّص ـ redeemer» للعالم القديم، يحرر أوروبا من ارتكاب المذابح ومن الشمولية التى هدَّدتها فى القرن العشرين. وقد استدعى بوش للذاكرة ـ أيضًا ـ الانتصار الأمريكى فى الحرب الباردة، وسقوط الإمبراطورية السوفييتية بسبب قوَّة أمريكا العسكرية ومقاومتها الفعَّالة للشيوعية فى مختلف أنحاء العالم. ودافع بوش عن قصة أمريكا بوصفها ممثّلة للحرّية، واعتبار هذا من أعمال الإيمان «الإيمان بالحرية والديمقراطية». إنَّ تعهُّد أمريكا بالتزام هذه العقيدة «الإيمانية ـ faith» هو الذى يجعلها «صخرة صامدة فى بحر هائج» وهذه العقيدة الإيمانية فى الديمقراطية هى أكثر من كونها مجرد عقيدة بلدنا، بل إنه أمل فطْرى لإنسانيتنا. إنه المثل الأعلى الذى نحمله لكنَّه ليس ملكًا لنا، أو بتعبير آخر ليس قَصْرًا علينا. إنه الأمانة التى نحملها والتى نسلمها لغيرنا(٧).

(*) ابن بيلى جراهام، ووريثه الدينى، وصرح بأن الإسلام شر وشرير ـ المترجم.

مرّةً أخرى نذكر أنّ هذه المقولة عن التاريخ الأمريكى ليست مُقْتصرة على بوش أو كُتَّاب خطبه. فالأمريكيون يرون تاريخهم من خلال اعتبار أنفسهم ضحايا للظلم، ومناهضين للإمبرياليين، فأمريكيون كثيرون لديهم تراث تاريخى عن أسلافهم، تراث يتحدث عن التحرر، أى عن مسيحيين بروتستانت إصلاحيين راديكاليين يفرون - فى القرن الثامن عشر - من الاضطهاد فى أوروبا، وفر الصقلّيون والأيرلنديون - فى القرن التاسع عشر - من الفقر، وفرّ اليهود من معاداة السّاميّة، وفر المكسيكيون والجواتيماليون والسلڤادوريون - فى القرن العشرين - من حكم المجالس العسكرية اليمينية، وإن كانت هذه المجالس العسكرية الحاكمة تلقى الدعم والتأييد من الولايات المتحدة. هذه الموجات من اللاجئين فى مدنهم الصغيرة وفى المناطق المجاورة - حضرية وريفية - كان يمكن أن تكوّن فيدرالية فى الوقت المناسب. كان هؤلاء يبدأون فى فهم أنفسهم باعتبارهم قد دخلوا بلدًا عظيمًا شاسعًا يمكن لحكومته أن تقدّم لهم الحريّة؛ لأنها بلد قامت بثورة أطاحت بالسلطة الإمبريالية الأوروبية. هذه الأفكار كانت تجيش فى صدورهم وهم يمرون بتمثال الحرية وهم يعبرون جزيرة «إليس - Ellis»، أو وهم فى طريقهم إلى مستقرّاتهم المتباعدة النائية. وحتى آخر القرن التاسع عشر - على الأقل - لم يكن لهذه الأمّة (الأمريكية) أية طموحات لتأسيس إمبراطورية خاصة بها تمتد وراء حدودها؛ ذلك لأنها كانت مشغولة بإحكام قبضتها على أراضيها الممتدة غربًا وجنوبًا والتى لم تكن قد أصبحت أمريكية بعد، وإنما إسپانية ومكسيكية. وأمريكا فى وعى معظم الأمريكيين أمة مناهضة للإمبريالية، وهو وعى بالذات ينعكس بوضوح فى خطاب الرئيس بوش. وباستدعاء هذا عند هذه النقطة فى حياة بوش، نجده لم يغادر الولايات المتحدة إلاّ فى مناسبتين، وفى كلتا المناسبتين كانت وجهته هى المكسيك. لقد كانت أمريكا هى عالم بوش قبل أن يصبح رئيسًا لها، وكان فى هذا مثل معظم الأمريكيين الذين ليس لديهم جوازات سفر.

إذا ربطنا هذا بمعنى اكتفاء أمريكا بسبب امتدادها من غابات كاليفورنيا ذوات الأخشاب الحمراء إلى تمثال الحرية فى نيويورك، فهمنا أنّ أمريكا عالم قائم بذاته. **كل هذا أعطى أمريكيين كثيرين معنًى كان له أيضًا جذور عميقة، وهو أنّهم حقا «شعب مختار - chosen people». فالپيوريتانز (التطهريون) الذين تركوا انجلترا قاصدين**

أمريكا فى القرن السابع عشر، رأوا فى مستوطنتهم الجديدة (أمريكا) أرض الميعاد (أو الأرض الموعودة) التى وهبهم الله إيّاها بتدبيره وحكمته. لقد نجوا من الاضطهاد الدينى فى انجلترا وسعوا لبناء كومنولث مقدَّس فى انجلترا الجديدة (نيو إنجلاند) متحررين من فساد بلدهم القديم الذى تركوه.

عند اندلاع الحرب مع السلطات الاستعمارية فى القرن الثامن عشر، وعندما كان الإنجليز يقصفون ميناء بوسطن، راح القس البروتستانتى الأسقفى چاكوب دوش يقرأ من المزمور رقم ٣٥ بحضور چورچ واشنطن فى الكونجرس القارِّى الأوّل، وكان من الواضح من خلال كلمات المزمور التى اختارها، أنه قد جعل أمريكا هى إسرائيل (أو بتعبير آخر جعل أمريكا هى الشعب المختار المقصود بإبرام العهد مع الله): «يا ربُّ كن خصمًا لمن يخاصمنى، وحارب الذين يحاربوننى، تقلَّد الترس والدرع وهُب لنجدتى..[٨]» لقد كان «دوش ـ Duche» مثله فى ذلك مثل البيوريتانز يُعوّل على القصة الواردة فى سفر الخروج والتى تدور حول خلاص إسرائيل من العبودية فى مصر، ودعوة الله له (لإسرائيل) ليكون شعبه المختار. لقد تضرّع دوش لإله إسرائيل ليحارب عن أمته الجديدة (الأمة الأمريكية) ضد الظالمين تمامًا كما حارب ـ أى الله ـ باسم إسرائيل. وكما لاحظ «كليفورد لونجلى ـ Longley»[*] فإن قراءة هذا المزمور فى افتتاح أول اجتماع فى أمريكا الجديدة فى منتصف الانفجار الثورى ضد بريطانيا، إنما كان «بلا منازع عملاً أسّس أمريكا على فهم معين لمقاصد الله. فمن الآن فصاعدا، لم يعد الشعب المختار هو اليهود ولا الكاثوليك ولا الإنجليز، بل ولا الإنجليز الجدد (المهاجرين الإنجليز إلى أمريكا/ النيو إنجلاندرز) وإنما كل الأمريكيين. ومن هنا فأن تكون أمريكيّا يعنى أن لك وضعًا دينيّا مميزًا، بوصفك مختاراً. أن تقول إنك أمريكى فإن لهذا دلالة دينية مثلما يقول شخص ما إنه يهودى أو مسيحى»[٩].

لقد تغلغل معنى الشعب الإلهى المختار فى الخيال الأمريكى، واتخذ مسميات مختلفة «أسلوب الحياة الأمريكى» و «الحلم الأمريكى» و «القَدَر المبين» و «الاستثنائية الأمريكية».

(*) «الشعب المختار ـ الأسطورة التى شكلت انجلترا وأمريكا» كليفورد لونجلى ـ من منشورات مكتبة الشروق الدولية ـ المترجم.

لقد عزف بوش على هذا الوتر فى خطابه الافتتاحى، وفى ردّ فعله إزاء الهجمات الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر عندما استدعى للذاكرة الجذور الدينية لما كان قد أصبح أمريكا العلمانية وأعاد الأمريكيين إلى «الأصول القُدُسيَّة» وبالتالى نبَّههم إلى دور بلادهم «المقدّس». لقد زعم بوش فى خطابه إلى الإعلاميين الدّينيين فى «ناشڤيل ـ Nashville» **أنَّ للولايات المتحدة مهمة دينية (إرسالية) هيّأها الله لها لجلب الحرية ـ وهى هبة من الله ـ لكل البشر فى العالم**[١٠]. لكن كان هناك التفاف على دعوة الله هذه، جعلها مغايرة لرؤيا «الحُجَّاج» الأوائل وهم يفرّون من أوروبا الإمبريالية، أو لبنى إسرائيل وهم يبحثون عن حماية إلهية من الإمبراطورية المصرية. فبالنسبة لبوش ليست أمريكا مجرّد مكان اختاره الله ليكون ملجأ آمنا لمن يتعرضون للاضطهاد فى بلاد أخرى، وإنما هى أيضا الأداة التى سيستخدمها الله لإسعاد أمم العالم بالحرية والديمقراطية. فبدلاً من أن تكون أمريكا ملجأ من العاصفة، فإنها تصبح هى نفسها العاصفة تهدّد بقوتها العسكرية الجبّارة وتفوقها الكاسح ـ بوصفها القوة العظمى الوحيدة الباقية ـ كل من يقاومون نفوذها، ونعنى بهم «أعداء الحرية».

لقد أصبحت أمريكا فى عقل بوش هى «المحرر» وليست مجرد شعب محَرَّر. لقد استعاض بوش عن قصة خروج إسرائيل ـ كما هى من سفر الخروج بقصة رامبو أو «الفيصل ـ Terminator».

«سنبنى دفاعاتنا وسنجعلها قويّة تفوق أىَّ تحد، مخافةَ أن يُشجع الضَّعفُ من يتحدوننا. سوف نواجه أسلحة الدمار الشامل حتى يكون القرن الجديد بلا رُعب. أعداء الحرية وأعداء بلادنا (أمريكا) يجب ألا يرتكبوا حماقة. تظل أمريكا مرتبطة بالعالم بحكم التاريخ، وباختيارها، تشكل توازنا فى القوى لصالح الحرية. سندافع عن حلفائنا وعن مصالحنا. سنحقق أهدافنا بلا عجرفة. سنواجه العدوان و «العقائد الفاسدة ـ bad faith» بالتصميم والقوّة. وسنتحدث إلى كل الأمم فى سبيل القِيَم التى أدَّت لميلاد أمتنا»[١١].

إنَّ النضال لتحقيق هذه الرؤيا فى الداخل وعبر البحار، سيتطلب شجاعة ومثابرة، لكن النجاح فى هذا النضال سيكون ـ فى الأساس ـ لأن «ملاك الرّب هو الذى يوجّه العاصفة»[١٢]. وقد أخذ كاتب خطب بوش الإشارة إلى ملاك الرب من كلمات چون

بيج رجل الدولة القيرچينى الذى كتب إلى توماس چيفرسون بعد إعلان الاستقلال: «نحن نعرف أنَّ الفوز فى السباق ليس للسريع وأن النصر فى المعركة ليس للقوى. ألا تعتقد أنَّ ملاكا يركب فى الزوبعة ويوجّه العاصفة؟».

فى خطاب حالة الاتحاد الذى ألقاه بوش فى سنة ٢٠٠٢م بعد الهجمات الإرهابية بثلاثة أشهر، وجد ما يؤكّد رؤاه بأنَّ لأمريكا هدف أسمى، وقَدَر مكتوب. لقد قدمت الهجمات الإرهابية «فرصة فريدة لجمع الأمم لخوض نضال شامل عالمى من أجل السوق الحرة والتجارة بلا قيود، باعتبارهما من وسائل التطور الاقتصادى والسياسى العَوْلمى:

«فى هذه الفرصة السانحة التى أتاحتها اللحظة أزاح الخطر العام المنافسات القديمة، فأمريكا (الآن) تعمل مع روسيا والصين والهند بشكل لم يحدث من قبل لتحقيق السلام والرخاء. فى كل المناطق أثبتت الأسواق الحرّة وحرية التجارة والمجتمعات الحّرة أنها قوية وأنها ترتفع بمستوى الحياة والمعيشة. سوف نثبت أنَّ قوى الإرهاب لا يمكنها أن توقف زَخَم الحرية، سنُثبت هذا بالعمل مع أصدقائنا وحلفائنا فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية»[١٣].

المعركة من أجل «الأسواق الحرّة» ومن أجل الحرية إنما هى معركة مع أعداء أمريكا الذين يكرهون فكرة أنه «فى هذه الدولة العظيمة، نستطيع أن نعبد الله بالطريقة التى نراها مناسبة. فالحرية هى هبة الله لكل إنسان فى العالم»[١٤]، وعلى هذا فإن أمريكا فى حالة نضال رؤيوى. أمريكا وحلفاؤها يمثلون فى هذا النضال قوى الخير، أما أعداؤها فيوصفون الآن باللقب سيئ السمعة. إنهم محور الشّر:

«لقد وصلنا لمعرفة الحقيقة وسوف لن نضل عنها. فالشر حقيقى (موجود) ولا بد من مواجهته، وبصرف النظر عن العرْق أو العقيدة، فإننا وطن واحد، نتألّم معًا ونواجه المخاطر معًا. فالشّرف قيمة عميقة فى الشخصية الأمريكية، إنّه أقوى من المصالح الذاتية. وقد اكتشف كثيرون ـ مرة أخرى ـ أنَّ الله قريب، لقد اكتشفوا هذا حتى وهم يُعانون المصائب، بل إن المرء ليكتشف قرب الله منه خاصة فى المصائب»[١٥].

وبعد هذا بعام خاطب بوش الشعب الأمريكى والقوات المسلحة الأمريكية بوصفه القائد الأعلى لهذه القوات، من فوق حاملة الطائرات (لينكولن)، يوم إعلان النصر

بعد غزو كلَّف العراقيين ٣٠٠٠ قتيل ـ على الأقل ـ من المدنيين بالإضافة لأعداد كبيرة من العسكريين، وأقل من ١٥٠ قتيلاً من القوات الأمريكية والبريطانية[١٦]. لقد قال بوش فى هذه المناسبة: **«أينما ذهبتم فأنتم تحملون رسالة أمَل ـ رسالة قديمة لكنها تظل جديدة إلى الأبد. وبكلمات النبى أشعياء فليتحرر أولئك القابعون فى الظُّلمة، ولتنفك قيود الأسرى»**[١٧].

وأثناء الحرب كان بوش أكثر وضوحًا فى بيانه للدور المقدَّس للقوات المسلحة الأمريكية، إذ قال فى خطاب موجه للقوات المسلحة الأمريكية فى قاعدة ماكديل فى فلوريدا: «الحرية التى تدافعون عنها هى حق لكل إنسان، وهى مستقبل كل الأمم، فالحرية ليست هبة أمريكا للعالم، بل هى هبة الله للإنسانية»[١٨]. المعنى واضح غير ملتبس: أمريكا والقوات المسلّحة الأمريكية خادمة لأهداف الله. إنها تحقق أهداف الله فى التاريخ، ليس فى أمريكا وحدها وإنما فى العالم.

وبالنسبة لچون بيچ فإن الملاك الذى يركب فى زوبعة الثورة الأمريكية ويوجّه العاصفة، يشير إلى أنّ يد الله ممتدّة إلى جانب ضحايا الظلم والاضطهاد المجتمعات الناشئة فى أمريكا الجديدة فى نضالهم الطويل للإطاحة بالقوى الإمبريالية. لكن بالنسبة لبوش فإن الله ليس الآن فى جانب الضعيف وإنما فى جانب القوى. إن العاصفة لم تَجْتح أمريكا وإنما أمريكا هى التى تصنعها. بالنسبة لبيچ، فإن الله هو مؤلّف التاريخ البشرى وموجّهه، خاصة بالنسبة لحالة أمريكا، أمّا أمريكة بوش، فهى التى تكتب تاريخها بنفسها، وهى وكيلة عن الله فى تحقيق «الخلاص» للتاريخ البشرى.

من النظرة الأولى، بلاغة بوش وكتّاب خطابه فى حالة نشاز مع «التعديل الأول ـ The First Amendment» فى الدستور الأمريكى الذى فصل الكنيسة عن الدولة. لكن فى عقول أولئك الذين صاغوا خطاب بوش، فإن التعديل الأول فى الدستور لا يتعارض مع اعتقادهم فى أنّ قَدَرَ أمريكا يحمِّلها مهمة أسمى لتحقيق «الخطة الإلهية ـ the divine plan» للبشرية كما أوحاها الله فى الكتاب المقدس. لقد رأى توماس چيفرسون فى ميلاد الجمهورية الأمريكية برهانًا على العناية الإلهية أكثر منه برهانًا على القوّة البشرية. **بل إنه أراد أن يجعل خاتم الأمة الجديدة وقد رُسم عليه «بنو إسرائيل ـ the children of Israel» وأمامهم ـ لتدلّهم وترشدهم ـ سحابة فى النهار وعمود نار**

فى الليل(*). وتحدث الرئيس چورچ واشنطن فى أوّل خطاب افتتاحى له عن «نار الحرية المقدّسة» التى حمل أمانتها الشعب الأمريكى(١٩).

ليس هناك ما يكشف عن الحكايات المقدسة للأصول الأمريكية أكثر من حروب أمريكا: حروبهم ضد أهل البلاد الأصليين، والكنديين والإسپان والمكسيكيين، وحروبهم مع البريطانيين، والحرب الأهلية الأمريكية، وحروبهم فى القرن العشرين مع النازيين والشيوعيين، وحروبهم الآن مع المسلمين. هذه القداسة ـ التى يُضْفُونها على حروبهم ـ تعكس المعتقدات الرؤيوية والألفية للپيوريتانز الذين هاجروا أولاً لأمريكا، وأصبحت ـ أى هذه القداسة ـ ملمحًا بارزًا للخيال الأمريكى الحديث، الإيڤانجليكى والأصولى. بل إن هذه النظرة يمكن تتبعها فى فترات تاريخية أبعد: فكريستوفر كولومبس عندما «وجد» أمريكا ـ بعد رحلة طويلة وشاقة قطع فيها المحيط ـ كتب: «لقد جعلنى الله رسولا إلى الجنَّة الجديدة والأرض الجديدة التى ذكرها [أى الله] فى سفر الرؤيا الذى كتبه القديس يوحنا.. وهو [أى الله] هو الذى أرشدنى إليها»(٢٠). «إن هذا الاسم نفسه ـ العالم الجديد ـ الذى نستخدمه لوصف الأراضى الأمريكية يحمل هذا المعنى، وهو أن أمريكا كانت جنّة جديدة وأرضًا جديدة» تحدَّث عنها سفر الرؤيا ـ للقديس يوحنا ـ وهو آخر أسفار الكتاب المقدس. وعلى هذا فحتى توم پين ـ وهو من اللاَّأدريين ـ الذين يقولون باستحالة فهم الأمور الغيبية وكثير من الأمور العقائدية ـ وكان عضوا أساسيًا فى صياغة الدستور الأمريكى ـ يُعلن «أننا امتلكنا الأرض الأمريكية لندخل معترك حياة جديدة. إن مثل هذا الوضع لم يحدث منذ أيام نوح حتى الآن. لقد أصبح ميلاد عالم جديد حقيقة واقعة بين أيدينا»(٢١).

ويستخدم بوش اللغة الرؤيوية ـ ليقدم رؤيا إمپريالية للقوة الأمريكية، وهو بهذا يعزف النغم الأساسى للإيڤانجليكية الأمريكية. حوالى ٤٠٪ من الأمريكيين يصفون أنفسهم بأنهم مسيحيون إيڤانجليكيون. واستطلاعات الرأى تشير ـ بشكل مضطرد ـ إلى أن ربع الأمريكيين يعتقدون أنهم يعيشون فى «آخر الزمان ـ end times»(٢٢)، وحتى خارج نطاق المسيحيين، نجد أن الأحداث الرؤيوية ـ القائمة على أسفار الرؤ ى ـ تشكل

(*) «وكان الرب يتقدمهم نهارًا فى عمود سحاب ليهديهم الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضىء لهم» سفر الخروج (١٣ : ٢١) ـ المترجم.

مادة لكثير من الأفلام السينمائية والروايات ـ غزو الغرباء، ونجوم وشهب تهدد بتدمير الأرض، ناطحات سحاب تمحوها النيران، مدن تجتاحها العناكب الضِّخام، أناس مشوهون لبقائهم على قيد الحياة بعد حرب نووية . . .

لماذا ينجذب الأمريكيون إلى التصورات الرؤيوية؟ . هناك عدة إجابات محتملة نسوقها للإجابة عن هذا السؤال. إحداها الثورة الأمريكية والحرب الأهلية المرعبة(*) ـ التى شهدتها أمريكا ـ والتى أعقبت تمازجًا فريدًا بين العنف الرؤيوى ـ والحماس الدينى الشديد. لقد اعتقد القُسس البروتستانت أثناء الحرب الأهلية أن ما شهدته هذه الحرب من عنف متطرف إنما هو نذير بنهاية الدنيا، وكلما لطَّخت دماء الآلاف الأرض، راح الجنود ينشدون ترانيم سفر الرؤيا «رأت عيناى مجد مجىء الرب» الذى كان يدوس عناقيد الغضب المخزونة . . .»(٢٣) وهناك إجابة أخرى يمكن أن نجدها فى الركود الاقتصادى فى السبعينيات من القرن التاسع عشر، والثلاثينيات من القرن العشرين، حيث أخذت أمريكا برأسمالية المؤسسات التى وضعت الصناعة والتكنولوچيا فى مقابل الصحة ورفاهية العمال والمجتمعات المحلية، وقد انعكس تأثير ذلك بوضوح فى رواية شتاينبك «عناقيد الغضب»، وكان هناك الخوف من الإبادة فى حرب نووية بعد أن لحق السوڤييت بأمريكا وفجروا ـ بنجاح ـ قنبلة نووية، وهو حدث زرع الخوف فى كل أمريكى وأدّى لظهور نوع جديد من الأفلام الرؤيوية عن غزو يقوم به غرباء، وعن اختطاف الناس وغير ذلك من أفلام الرعب.

ولعدّة عقود بعد ذلك، كان لكل حى أمريكى ملجأ يحميه عند حدوث هجوم نووى، كما كان الأطفال فى مدارسهم يتدربون على ما يجب عمله عند حدوث هجوم. وغالبًا ما كان الألفيون يقارنون القنبلة الذريَّة والتى تشبه سحابتها شكل عش الغراب بمعركة هرماجدون فى سفر الرؤيا، حيث تُذيب النار والحرارة قشرة الأرض. يعيش الرؤيويون فى خوف: خوف من غير الأمريكيين وخوف من العبيد الذين أصبحوا مواطنين، وخوف من الغرباء، وخوف من المجرمين، وخوف من الحكومة

(*) استمرت حوالى ست سنوات، راح ضحيتها حوالى ستمائة ألف قتيل، وأكثر من ذلك من المصابين، وكان كل تعداد الولايات المتحدة فى ذلك الوقت ـ ستينيات القرن التاسع عشر ـ أقل من ثلاثين مليون نسمة ـ المترجم.

الفيدرالية. فكما بيَّن مايكل مور فى فيلمه الوثائقى الحائز على جائزة الأوسكار (Bowling for columbine) فإن التليفزيون الأمريكى وغيره من وسائل نقل الأخبار تقدم للمشاهد والمتابع - فيما يبدو - جَرْعة يومية ثابتة من الخوف بتركيزها الدائم على الأعمال الإجرامية، وإطلاق البوليس للرصاص، وقيام سيارات البوليس بأعمال المطاردة، والحرب على المخدّرات، والحرب فى إسرائيل، والآن الحرب على الإرهاب.

بالنسبة لأمريكا، كان أمرًا يدعو للسخرية، ومأسويًا أن يُصاب البر الأمريكى فى ١١ من سبتمبر سنة ٢٠٠١م بعنف رؤيوى، وكان منفذو الهجوم هم أيضًا من المؤمنين بالرؤى المستقبلية ذات الطابع الدينى للعالم، فأسامة بن لادن وأتباعه - مثلهم مثل المؤمنين بالألفية - يؤمنون بأن التاريخ سينتهى فى عنف، وأنه لا سبيل إلا الحروب العنيفة لبداية تاريخ جديد، وأن الله قدَّر هذا سلفًا، وسيبدأ هذا التاريخ الجديد عندما تظهر «الخلافة الكبرى - The Grand Caliphate» التى تمثل حكومة عالمية واحدة لكل المسلمين فى هذا العالم. يريد بن لادن وأتباعه أن يشكّلوا تاريخًا جديدًا ليضعوا العالم على طريق جديد أو نهج جديد وهم مستعدون للتضحية بأرواحهم لهذه القضية بنشر أعمال العنف المرعبة. لا شىء يمكن أن يكون مدعاة للرعب بالنسبة لمعظم الأمريكيين من أن يروا مؤسساتهم المالية والعسكرية تذوب منهارة - بالمعنى الحرفى للكلمة - أمام أعينهم بفعل هذا الهجوم العربى الضارى.

لقد بدا الأمرُ كما لو أن كل الأفلام التى تُصوّر العُنف الرؤيوى والتى تم إنتاجها منذ تسعينيات القرن العشرين، والتى صورت المسلمين أعداء جُددًا بعد زوال الشيوعية - إنما كانت أفلامًا تصوّر واقعًا يتحقق[٢٤].

بدا أن بوش كان يتوقَّع الأزمة القادمة عندما ذكر فى خطاب تنصيبه أن أمريكا تقف عند مفترق طرق فى مرحلة تاريخية. لقد قال: **إنه حظى باختيار الله له لتوجيه قوات أمريكا العسكرية لتكون أداة إلهية مكرَّسة لجلب الحرية والديمقراطية لأمم العالم، وللنضال ضد أعداء أمريكا - خاصة ممن يملكون أسلحة الدمار الشامل - وإجبارهم على تقبل هاتين القيمتين - الحرية والديمقراطية - ووضعهما موضع التطبيق»**[٢٥]. وبعد «يوم الرّعب» أعلن بوش «حربًا صليبية» ضد الأشرار الذين رتَّبوا هذه الهجمات، ومعركة

عسكرية للإمساك بهم وتدميرهم. إنها معركة العدالة المطلقة. إلا أنه وإن كان قد تراجع - فى العلَن - عن هذه اللغة الدينية، إلا أنه ألقى الإثم على المسلمين. فبوش يعتقد أنه والذين يحاربون معه خدم الله «عبيد الله المحققين لإرادته - servants of God» وأن التاريخ إلى جانبهم، أما أولئك الذين يحاربونهم - أعداءهم - فهم أشرار بشكل واضح، وأنهم سيُهزمون. ومثل هذه العبارات تُعتبر لازمة من لوازم أحاديثه تتكرر كثيراً. إنه فى هذا مثل كثير من الرؤيويين بما فيهم أسامة بن لادن - الذين يرون المستقبل من منظور دينى محدد سلفًا.

وقد اعتنق مؤيدو بوش من المحافظين الجدد عناصر أخرى متصلة بالعقيدة الألفية، خاصة محورية إسرائيل فى «تاريخ نهاية الزمان - end time» history. وبينما صور الكثيرون الهجوم على أفغانستان عملاً من أعمال الدفاع عن النفس لوجود مراكز تنظيم القاعدة هناك، فإن الهجوم على العراق لم يكن - بشكل واضح - للغرض نفسه، **وإنما كان لهدف مختلف تمامًا؛ هدف ينطوى على الرغبة فى إعادة تشكيل الشرق الأوسط ليكون آمنا بالنسبة لـ «الأمة الإسرائيلية - Israel the nation of» التى تعتبرها أمريكا (الدولة) الوحيدة التى توظّف الديمقراطية فى المنطقة. وما كاد يمر عام بعد «النصر» الأمريكى فى العراق حتى وقف بوش مع شارون فى حديقة الزهور - الروز جاردن - فى البيت الأبيض، فى أبريل سنة ٢٠٠٤م ليعلن موافقته على خطة شارون لدعم الاحتلال الإسرائيلى غير الشرعى، وإنشاء المستوطنات فى أكثر من ٤٠٪ من الضفة الغربية فى فلسطين.**

وتبنَّت إدارة بوش أيضًا كثيرًا من العناصر الجوهرية التى تأخذ بها الأجنْدة الاقتصادية والسياسية للمسيحيين المحافظين اليمينيين، فقد خفَّضت الدّعم الفيدرالى للتعليم والرفاهية الاجتماعية، وحوّلت بلايين الدولارات للمبادرات الخدمية الاجتماعية القائمة على أساس دينى، وعزّزت بشكل هائل الميزانية العسكرية، فى الوقت الذى خفضت فيه ضريبة الشركات وضريبة الدخل المفروضة على الأثرياء. لقد أضعفت الهيئات: تنظيم البيئة والمالية والعمالة والسوق، وأعادت صياغة القوانين الفيدرالية التى تحمى أرض البرارى والأراضى السّاحلية والأنظمة البيئية الهشّة من المبالغة فى الحفر بحثًا عن البترول والمبالغة فى الاستثمار التجارى. **وتنكَّرت الإدارة أيضا للالتزامات الأمريكية بالاتفاقات الدولية فى البيئة والعدالة، فقد رفضت أن**

تعترف بسلطان «المحكمة الدولية ـ World Court» أو التصديق على معاهدة الأمم المتحدة بخصوص حقوق الطفل، ورفضت بروتوكول كيوتو عن التغيّر المناخى، وتبرّأت من سلطة الأمم المتحدة واتفاقية چنيف بشأن مواثيق الحرب.

لقد زاوجت سياسات إدارة بوش بين الالتزام بالرأسمالية المطلقة ـ غير المقيدة ـ ومن ثمَّ الديمقراطية المكبوحة بالمؤسسات [مؤسسات الأعمال الكبرى]، والرغبة فى إنفاق مبالغ هائلة على المؤسسات الأمريكية المُنتجة للتكنولوچيا العسكرية، وفى الوقت نفسه فإنَّ هذه السياسات أظهرت مهمة أمريكا المقدسة أو «إرسالية ـ mission» أمريكا المقدّسة ـ لقيادة العالم إلى مستقبله المقدَّر بقضاء وقدر ـ أى إلى الديمقراطية والحرّية. وبينما نجد بوش مُسَاقًا ـ بوضوح ـ بإيمان بالرأسمالية المطلقة التى لا يكبحها كابح، unbridled capitalism، إيمان يجنح إلى حماس دينى، فإن هذه السياسات ليست بالضبط نتاج أيديولوچيا حديثة[٢٦]. فإننا نجد هنا روحًا ألفيّة عميقة، روحًا تمتد جذورها إلى بزوغ اعتقاد الأمريكيين فى أنهم «أمّة مخلِّصة ـ redeemer» قضى الله وقدَّر أن تقود العالم إلى نهاية التاريخ.

ويقع على عاتق كتابنا هذا إظْهار هذه الروح الألفيّة القائمة على تشويه مفْجع للمسيحية الحقيقية. كان إيمان المسيحيين الأوائل قائم على أنَّ سفر الرؤيا قد جرت وقائعه ـ بالفعل فى حياة وموت يسوع المسيح وقيامته من بين الموتى ـ وبالنسبة للمسيحيين الأوائل كان سفر الرؤيا بيانًا فى تمجيد المسيح عند صعوده ليكون على «يمين الله ـ on the right-hand of God»، وكان سفر الرؤيا يعرض الأخلاقيات والسياسات البديلة فى المجتمعات التى تعبده، والتى مثَّلت تهديدًا لسلطان الإمبراطورية الرومانية، تمامًا كما كان المسيح يمثل تهديدًا لها. فالمجتمعات المسيحية الأولى كانت مجالا لثقافة مناقضة لثقافة الإمبراطورية الرومانية، إذ كانت ثقافة هذه المجتمعات المسيحية قائمة على المساواتية والمشاركة الاقتصادية، والرعاية العملية لليتيم والفقير والمريض والأرملة، لكن المسيحية ـ على أية حال ـ اعتراها الفساد بسبب ما حقَّقته هى نفسها من نجاحات. فمع تحوّل الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية فى القرن الرابع للميلاد، تحوّلت المسيحية عن أصولها المناهضة للعنف والمعارضة للإمبريالية إلى عبادة إمبريالية «imperial Cult».

وبوش وكتّاب خطبه يستخدمون تحريفات لأسفار الرؤيا ليخلطوها بالدِّين المدنى الأمريكى لإضفاء الشرعية والقداسة على العنف الإمبريالى ـ الإمبراطورى ـ وهم فى هذا مثل كثيرين من الأباطرة والملوك فيما عُرِف بالعالم المسيحى .

لقد استخدموا اللغة الرؤيويّة لا لإعلان ما رآه القديس يوحنا ـ كاتب السِّفر : سقوط الشيطان من السماء بعد أن هزمته الملائكة ، وإنما ليقولوا : إن أعداء أمريكا سوف يرون الأسلحة الأمريكية تسقط عليهم من «سماواتهم ـ their skies» ـ أى من سماوات بلادهم ـ قد يتحدّث بوش من خلال تُراث الحُلم الأمريكى ، وقد يتحدث من أجل دين العَلَم الأمريكى ، ثقةً منه بأن استخدام القوّة يمكن أن يحقّق نتائج طيبة نسبيا ، لكنه ـ أى بوش ـ لا يستطيع أن يدَّعى ـ وهو مُخلِص ـ أنَّ ما يقول به هو سياسات يسوع المسيح .

حججى فى هذا الكتاب ليست فى استحسان فصل السياسة عن الدين ، بل العكس ، فإن قصْدى هو أن أساعد على استعادة القراءة الروحية للچيوپوليتيكا فى زماننا . فعلماء الاقتصاد السياسى الذين يصفون الحكومة الحديثة بمصطلحات الدساتير المعتدلة والتعاقدات الاجتماعية «وقوانين» العرض والطلب ، لا يقدمون لنا فهما صحيحا للروح الرؤيوية التى تقود سياسات الإمبراطورية الأمريكية ، والدِّين المدنى الذى يُضفى عليها القداسة والطقوس الوثنية(*) «Idolatrous Rituals» للأنماط الاستهلاكية التى تؤازرها . وسأوضح أن إدارة بوش الحالية ليست ضالّة منحرفة بقدر ما عن المسار العادى للتاريخ الأمريكى ، أو حتى عن خطاب الرؤساء الأمريكيين المحدثين ، بل إننى بدلاً من هذا أقول : إن لها جذورها العميقة فى الدين الزّائف ـ false (غير الحقيقى) للاتجاه الرؤيوى الألفى الأمريكى . وسأسوق الأدلّة على أن «المسيحية الأصلية ـ ortho-dox christianity »(**) ـ بما فى ذلك بعض أشكالها الرّاديكالية فى أمريكا الشمالية ، تمثل بديلاً أخلاقيّا وروحيًا عن العُنف الرؤيوى لرأسمالية مؤسسات الأعمال الكبرى والإمبريالية العسكرية ، كما تقدم مصادر مهمة لتحدِّيها ومقاومتها فى الميدان العام .

(*) idolatrous vituals والمقصود القوانين التى يقدسونها ، ويراعونها بكل شدة والتزام ـ بل ويتحالفون ويتخاصمون حتى الحرب فى سبيلها ـ كما لو كانت ديانة وثنية ـ المترجم .

(**) المقصود المعنى اللغوى وليس الطائفى ـ المترجم .

تصاعدت ضرورة المقاومة المسيحية للإمبراطورية الأمريكية؛ لأن **جورج بوش وتونى بلير يزعمان أنَّ عليهما مواصلة حربهما غير الشرعيّة فى العراق، وحربهم الأوسع نطاقًا على الإرهاب، وهى نتيجة رغبتهم المسيحية فى فعل «ما هو صحيح»، حتى لو كانت هذه الرغبة غير ديمقراطية ولا يؤيدها الشعب**. إمكانية أن تُوظَّف الأخلاقيات المسيحية على هذا النحو، ربما كانت تمثل أخطر اتهام للمسيحية يمكن أن يوجّهه كثيرون من الإنسانيين العلمانيين فى العقد الأول من الألفية الثالثة. وليس جزءاً من هدفنا أن نُنكر أن المسيحية منذ أيام قسطنطين قد ألقت القداسة على كثير من الحروب الإمبريالية، لكن إن شئنا الدقّة فإنه عندما ارتقى المسيحيون لهدف تكوين مجتمعات قائمة على العدالة والسلام - والتى هى مختلفة راديكاليًا مع الإمبراطورية - فإنهم قدّموا فى أمريكا والمجتمعات المسيحية الأخرى بواعث ممارسة الديمقراطية والعدالة الاقتصادية والتعليم العام والرعاية الصحية ومخاطبة الحقوق المدنية والإنسانية والعدالة الاقتصادية والمساواة بين الجنسين، توزيع الثروة والحفاظ على البيئة.

لقد كتبتُ هذا الكتاب وأنا مؤمن بأنه عندما يستعيد عدد كبير من المسيحيين فى أمريكا وبريطانيا وغيرهما المسيحية الراديكالية - الأصلية - التى قال بها المؤسس، فإنه ستَتَقَوَّض دعائم إساءة استخدام الدين على أيدى الزعماء السياسيين وعلى يد الإرهابيين، فهؤلاء جميعا يُضْفون القداسة على حروبهم وعلى تقسيمهم البشر - وفق منظور رؤيوى - إلى أشرار وصالحين.

***